الحلقة السادسة عشرة

(1) (مشهد التعزية بوفاة فريدة في بيت الأسير.. الذين حضروا خطبتها جاؤا للتعزية فيها)

(خالد الصدمة تكاد تفقده عقله.. ينام على سرير مجاور لسرير فريدة، بكامل ثيابه وقد طالت لحيته وشارباه.. تدخل حنيفة ومعها أم خالد "القمر الأسود" كما تدعوها حنيفة)

حنيفة: ثلاثة أيام بلياليها وهو في غرفتها هذه لايبرحها الاّ لقضاء حاجة.. نأتيه بالطعام فلا يذوق منه الاّ اليسير.. انفجر شريان في صدرها اثر نوبة سعال وكنا نأتيها بالطست فيمتلئ بدمها.. جاء الطبيب ورآها.. لم يكن بيده حيلة، زرقها ابرة ليهدئ سعالها، وانصرف تاركا اياها لرحمة الله (الى خالد الذي كان مستغرقا بالنوم) قم ياولدي جاءت أمك لرؤيتك.. هذه مشيئة الله ولا اعتراض عليها.. يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول ما يغضب الرب!

(خالد يصحو وتنتابه نوبة بكاء) في هذا اليوم تنتهي إجازتي وكنت أريد العودة الى عملي لأصمّد مهرها! (أم خالد وحنيفة ينخرطان في البكاء)

حنيفة: قم ياولدي إحلق لحيتك وشاربيك، واذهب الى عمك.. زاره أخوه منذ يومين قادما من صيدا، وأخبره بأمر يكاد يفقد معه عقله.. حريق شب في بيته، ونيران هوجاء أتت على مكتبته، وفيها القسم الكبير من مؤلفاته وأشعاره! (ينتفض خالد من فراشه، ويمسح دموعه بمنديله، ويلبس خفّه ويذهب اليه)

(3) (في غرفة الإستقبال الأسير وخالد)

الأسير: الرزء بالمال يهون يا خالد، تأتيك الأقدار بما لاتحتسب وتعوّضه عليك.. والرزء بالولد ان لم يكن وحيدا، يبقى حسرة في قلبك مدى الحياة.. ولكن الله يعوضه عليك بالأحفاد، ويمسح الجراح الاّ شوكة تحز في القلب مع الذكريات.. أما الرزء بأثمن ما جمعت من ثروة فكرية خلال ثلاثين عاما من حياتي فهذا ليس حسرة فقط مدى ما بقي من العمر، ولكنه قنوط من أن يعوض! (خالد صامتا مطرقا يهز رأسه موافقا)

أستيقظ من نومي وأنا أحسّ أنني كنت تحت وطأة كابوس أصحو منه على واقع مغاير، فتقر عيني وأحمد الله أن ما جرى كان من هواجسي.. لاأصدق أن الأقدار اغتالت فرحي مدى الحياة في شهر واحد، إبنتي

وثروتي الأدبية.. لن تنقضي حسرتي، فالثكل في أعماقي ناره تشتعل حتى مماتي (تدخل حنيفة)
حنيفة: هناك زوار جاؤوا لتعزيتك!
الأسير: لا أريد من الزوار أن يعزوني.. لعل بينهم حاسد شامت بي فرح بالسهم الذي أصابني.. أي عقل مجرم يخطر بباله أن يحرق مؤلفاتي ولحظات الإلهام في شعري، والمجلات التي حفظت بعضا من أقوالي وأشعاري.. أنى لي أن ألملم بعضا من كنزي الذي ضاع مني في غفلة الأقدار عني؟..
حنيفة: زوارك هم رفاق مصطفى من أدباء وشعراء، هم طلابك الذين تخرجوا على يديك، ولا يمكن أن يؤذوك.. وربما كان لديهم ما يقولونه لك ويفرج كربك (يخرج الأسير ليفتح الباب ويتبعه خالد ليحلق ذقنه ويغير قميصه ويلبس حذاءه.. في قاعة الجلوس التي يمر بها، حسن يلعب مع حنيفة الصغيرة وبيده عدسته المجهرية ينظر اليها من بعيد ويقول "أصبح لك وجه عملاقة.. يا الله كم تشبهين فريدة!")
الشاعر اليازجي: أتذكر يا شيخنا ماذا قلت لنا يوم احتفلنا بقدومك في منزل مصطفى؟
الأسير: لم تعد لي ذاكرة أذكر فيها حتى بعضا من شعري الذي كتبته!
اليازجي: قلت لو طاف الإنسان الدنيا لما رأى فيها من المحاسن ما في مدينته أو حتى في قريته.. في الغربة يلتوي لسانك بلغة غيرك، ولا تستطيع المجاهرة بما في نفسك.. أما في الوطن فالحجر ثقيل في موضعه، فأي شيء هو الوطن؟ أهو التراب والحجارة والبيوت الصماء؟ انه الناس الذين يعيشون فيه، وتعايشت معهم السنين، وكان لك معهم ذاكرة جماعية تمتد الى الماضي ألوف السنين.. الذين نحبهم، الذين نحترمهم، الذين نخاصمهم، الذين تتفاعل حياتنا مع حياتهم ان كانت سلبا أم ايجابا.. هذا هو الوطن الذي يجمعنا ونحنّ اليه في الغربة ونحبه أكثر من كل وقت مضى.. (الأسير يتنهد)
جئناك لنقول لك أن ما حدث لإرثك الفكري من حريق أصابنا في الصميم كأنه مصابنا.. نحن جيل أبنائك والأجيال التي بعدنا هي التي رزئت بهذا الإرث الثمين المفقود.. في نادينا نحتفظ من المجلات التي حفظت بعض أقوالك وأشعارك: الجوائب ولسان الحال.. وسنقوم بحملة نجمع بها بعض مؤلفاتك التي نشرت لك ونعيد طبعها، ولعلها تعوّضك عن بعض ما فقدته!

خالد: وأنا سأسعى للحصول على أعداد الجوائب التي كنت تكتب فيها مقالاتك وأشعارك قبل مجيئك الى استنبول..

(4) (الأسير وحده يناجي حورياته اللواتي طالما سهر الليالي في رفقتهن يتملى من حسنهن وطيب عشرتهن)

الأسير: حوريات الجنان تتخلى عني.. تحيط بي باسمة متأملة معجزات الطبيعة وانسجام الكون، دامعة حينا لفقد صديق، غاضبة أخرى لظلم حاق بمظلوم، رقيقة في حوار، كاظمة لغيظ من جاهل، جامعة لقلوب متنافرة، حامية لتراث يبتذل، مستجيرة في مرض طفل، متصبّرة لرزء محتمل، فرحة تارة قانطة أخرى لتقلب الزمن.. لماذا حشرتها كلها في سجن خزانة وأدراج؟ ولم أطلقها جميعها لتكون ذخرا للأجيال حتى أتت عليها نار هوجاء تركتها أكداسا سوداء، بفعل متعصب جاهل، أو ناقم حاسد، أو مرتشي جاحد..

أسمع صراخ استغاثتها في الليل البهيم وقد اشتعلت النيران في أثوابها الفضفاضة فلا منقذ لها، وأرواحها تضيء الكون وأجسادها تحرق وتتلاشى.. فلا تترك أثرا، ولا ترشد عقلا، ولا تنير ذهنا متعصبا!

لهفي على الحوريات الجميلات التي قضيت العمر في معبدهن!

لهفي عليهن يعانقنني ويسكبن على لساني رحيق أنفاسهن!

لهفي عليهن والنار تحيط بهن يستغثن ولا نصير لهن!

* * *